٢ ـ المستقبل وأسرار الوجود

بين السببية والمستقبلية

للأديب عبد الجليل السيد حسن

عرض لمشكلة السببية :

حينما نلق بقطعة من القطن في النار فلا نشك في احتراقها ، وحينما يأكل الجوعان فلا نشك في شبعه ، وحينما تضرب الطفل فلا شك أنه سيبكي . وحينما ترى الغادة الهيفاء والوردة الناضرة فلا شك في إعجابك بجمالها إذا كنت ممن يقدر الجمال في المرأة والزهرة

ولنسأل منا الآن : ما الذي أحرق القطن ، وأشبع الجائع وأبكى الطفل ، وأثار فيك مشاعر الجمال ؟ ولا أشك في أنك ستجيب على الفور : إن السبب في ذلك هو النار والأكل والضرب والجمال الكامن في المرأة والوردة . ولكن ياصاحبي لا تكن سريع الحكم ، وانظر في الأمر وتدبره ؛ هل النار حقيقة هي سبب الاحراق ؟

ما هذا ؟ أتريد أن تخدعني عما أحس وارى وتقول لي : إن علة الإحراق شئ غير النار ؟

— لتعلم أنني لست أريد بك خداعا أو تغريرا ، ولكني أريدك أن تكون دقيقا أمينا فيما تشاهد وتدرك ، وأن تأخذ الأمور كما ترد إليك لا تزيد فيها ولا تنقص . فما العلة اللازمة والسبب القاهر الذي يجعلك تسند الإحراق إلى النار ؟ أليس هو أنك شاهدت احتراق قطعة القطن عقب إلقائها في النار ، ولم تر عينك شيئا أكثر من ذلك ؟ إذن ما الذي دفع بك إلى أن تجزم بأن النار هي علة الإحراق ؟ لا شئ غير مشاهدة حدوث هذا مع ذاك أو مقارنا له . فكأنه ليس هناك شئ يمكن أن يعد سببا لشئ أو علة له ؛ بل هناك تعاقب أو اقتران بين الحوادث ، ولا شئ غير هذا ؛ فقطع الرقبة ليس سببا في القتل ، وكسر الرجل ليس سببا في الألم ، ولقاء الحبيب ليس سببا في النشوة التي تصاحبه ، وإضاءة المصباح ليست سببا في الضوء الذي يعقبه ، وإعطاء المريض دواء ليس هو السبب في شفائه .. وغير ذلك من الأمثال ؛ بل كل ذلك ما هو إلا حوادث تعقب حوادث وأشياء تقترن بأشياء ؛ أما أن نقول إن هذا سبب ذلك ، فهذا مالا يقره العقل

وهذا هو الوضع الصحيح البسيط لمشكلة السببية بين المثبتين الذين يقولون أن لا شئ يحدث بدون سبب ؛ وبين المنكرين الذين يقولون أن ليس هناك شئ يمكن أن يعد سببا على سبيل التعيين

ونستطيع أن نخرج من كل ما تقدم بشئ واحد ؛ وهو أن الذين أنكروا السببية أنكروها لشئ هو وقوفهم عند ما يشاهدون ويحسون فقط . وأما الذين أثبتوا القول بالسببية فهو وقوفهم عندما يحسون ويشاهدون أيضا . ولكن الفرق بين المنكرين والمثبتين : أن المنكرين قالوا « إن المشاهدة تدل على الحصول عنده ، ولا تدل على الحصول به » ، وأما المثبتون فقالوا « إن المادة اقتضت أن يتبع هذا ذاك ، فلا بد أن يكون هذا هو علة ذاك ، وإلا فما الداعي لحدوث هذا التعاقب ؟ » وقد آمن المثبتون بهذه المادة ، وبنواحيانهم وقوانينهم عليها ، وقالوا

وساقوه إلى السجن

وقد ارتكب الإنجليز فظاعة وإثما لا يتصوره عقل ، فعلاوة على ما سبق قبضوا على أحد مشايخ القرية ومعه أربعة من الأهالي ودفنوهم حتى أنصاف أجسامهم ، ثم شوهوا وجوههم بوخزات الحراب ، وبعد ذلك أطلقوا عليهم الرصاص فأراحوهم من هذا العذاب

أرأيت وحشية وفظاعة أكثر من هذا ؟ إن أحط أنواع البشر لا يمكن أن يصل في وحشيته إلى هذا الدرك ، وإن مجازر الإسماعيلية وبورسعيد والسويس لسلسلة متممة لحوادث المزرية والبدرشين ونزلة الشوبك ؛ ولكن مهلا وصبرا فإن نهاية هؤلاء الطغاة قريبة إن شاء الله

أبو الفتوح عطيفة

إن لكل ظاهرة من الظواهر علة أحدثتها ، ثم خصصوا فقالوا : إن هذه الظاهرة « ب » مثلا ، علتها الظاهرة « ا » ودليلهم على ذلك العادة التي أرتهم أن « ا » تتبعها « ب » دائما . وبينما يؤمن المثبتون بهذا ، يقول المنكرون : إنه لا علة للجزم بأن « ا » لابد أن يتبعها « ب » بل قد يتبعها « هـ » أو « د » من الظواهر ؛ فما العلم سوى قوانين ، وهذه القوانين لم تستخلص إلا نتيجة للتجارب والشواهد التي فرضنا أن لها عللا معينة ؛ وما دام ليس هناك من سند للقول بالعلية والسببية ، فإذن من المحال أن يكون هناك علم ، أو لو أردنا الدقة لقلنا إن صحة علمنا موقوفة على صحة ما نسميه عللا ومعلومات ، وبذلك نتفادى القول باستحالة العلم إلى القول باحتمال صحته ، ولا ضير بعد ذلك ، فالعلم ما هو إلا تسجيل للواقع المشاهد

وانترك الآن عرض السببية عرضا تاريخيا في الشرق عند كل من الغزالي وابن رشد ، وفي الغرب عند كل من « هيوم وكانت» . وانترك أيضا المقارنة بين هؤلاء جميعا إلى فرصة أخرى ونخلص إلى السببية والمستقبل

. . .

السببية والمذهب المستقبلي :

إذا شاهدنا ظاهرتين متلازمتين في الماضي ، مثل الإحراق وإلقاء النار ، أو طلوع الشمس ووجود النور ، فهل يستمر هذا التلازم أيضا في المستقبل أم لا ؟ وإذا كان هذا التلازم والارتباط بين الظواهر ثابتا مستمرا ، فإنه يمكننا بذلك أن نتنبأ بالأشياء التي لم تحدث بالفعل ، وسوف تحدث في المستقبل . وحياتك لا شك مبنية على هذا التنبؤ ، فأنت واثق من وجود النور غدا لأنك على يقين من طلوع الشمس فيه حاملة النور إلى الكون . ولكن .. هل خطر بذهنك أن الشمس قد تطلع غدا ولا تنير أو قد لا تطلع البتة ؟ وأنت تنظم حياتك على أن هذه الظواهر المتلازمة في الماضي ، لا بد وأن تستمر في المستقبل ؛ فأنت على يقين أنك لو ألقيت بهذه النقود الورقية إلى النار لاحترقت ، أو لو وضعت يدك في النار لاحترقت ، فأنت لا ترمي بنقودك إلى النار ، ولا تضع يدك فيها . وكلنا يشرب الدواء طمعا في الشفاء ، ونتجنب الميكروب خوف المرض . والعالم الطبيعي أو الكيماوي حينما يعيد إجراء تجربة ، فهو متأكد أنه سيحصل على نفس الظواهر التي حدثت في الماضي

فنحن في حياتنا العملية نتغاضى عن إنكار السببية ، ونتناسى أن الأمر قد يكون مجرد ارتباط فقط لا علية فيه . ونحن نعلم تمام العلم أن معرفتنا بالأسباب تجعلنا قادرين على أن نتنبأ بما سوف يحدث في المستقبل ، وبمقدار إحاطة علمنا بالأسباب يكون صحة تنبئنا بالمستقبل . ولكن ذلك لا يغرينا بتكوين رأي ومذهب في الحياة على تجاهل أن الأسباب قد تكون مجرد تلازم ومقارنة لا غير ، وما نعده سببا ما هو إلا لحكم العادة والمشاهدة فقط ؛ فقد يثبت ثبوتا قطعيا أن ليس هناك من شئ يمكن أن يعد سببا ، وخصوصا بعد نظرية الكم « الكوانتم » والميكانيكا الموجية (١)

بيد أن كل ذلك لا يمنعنا من أن ننظر في الأمر نظرة مستقبلية نبني عليها مذهبا في الحياة ورأيا في الوجود

. . .

كلما حدث شئ في الوجود ، أو تغير أمر في الظواهر الطبيعية ، فلا بد أن هناك قوة أحدثت هذا التغير ، ونقلت من ثم شيئا كان موجودا بالقوة إلى الوجود بالفعل ، أو حققت في الوقائع شيئا كان ممكن التحقيق ، وليس هناك كائن من كان يستطيع أن ينكر هذه القوة وهذا التغير

ولن تجد اثنين يختلفان في أن حدوث هذا التغير قد حدث بقوة أو بسبب من الأسباب . ولكن ستجد من يختلف في : هل هاتان الظاهرتان اللتان يتبع بعضهما الآخر . . هل الأولى

---

(١) الكوانتم أي المقدار وجمعها كوانتات (مقادير) : هي نظرية قال بها ماكس بلانك الألماني وتتعلق بتفسير الطاقة ، فالطاقة مكونة من كوانتات ، ومن نتائج هذه النظرية أن قضت على الجبرية العلمية ، فالصلة بين الطاقة والإشعاع لا يمكن تعيينها بدقة ، وكان كذلك من نتيجة الميكانيكا الموجية أن ثبت أن حركات الأجسام لا تعرف بالضبط ، لأنها لا تسير على قوانين ثابتة

سبب للثانية ، أم أن الأمر مجرد عادة ومشاهدة .؟ وبعبارة أخرى ستجد من يختلف فى أن الاطراد والتلازم والمقارنة فى الوقوع ، هو علة التغير والحدوث

وهذا الاختلاف الذى هو جوهر مشكلة السببية لا يعنينا أمره كثيرا ، وقد كان يعنينا أمره لو كنا مهتمين بمعرفة مايحدث فى المستقبل بناء على خبرتنا وتجاربنا فى الماضى . ولكن الأمر الذى يهمنا أكثر ، من وجهة النظر المستقبلية ؛ هو إثباتنا الحدوث والتغير ، وشعورنا بوجودنا ؛ بناء على هذا الانتقال المستقبلى ، ونظرتنا إلى الوجود هذه النظرة المستقبلية ؛ لأن كل ما نريد أن نصل إليه هو فهمنا لهذه الحيـــاة كما هى ، وهذا الوجود على حقيقته ، ثم الإفادة من هذا الفهم ، ورسم خطة نسير عليها فى هذه الحياة

فنحن حين نبنى شعورنا بالوجود على النظرة المستقبلية ، وعلى الانتقال المستقبلى الذى يجعلنا نحس بوجودنا (نذكر مثال الرجل الموجود فى الشمس الطالعة والعالم الساكن فى المقال السابق) ؛ وحين نثبت أن وراء الحدوث والتغير قوة سببية حققت الانتقال المستقبلى ، أى الانتقال من القوة إلى الفعل ومن الإمكان إلى الواقع ؛ إنما نرسم لأنفسنا خطة عملية سليمة ، ونهجا نراه قويما ، ومذهبا مستقبليا فى هذه الحياة وهذا الوجود . فنحن نقدس العمل لأنه وسيلتنا فى الانتقال المستقبلى ، وندعو إلى القوة لأنها سبيلنا إلى جعل الممكن واقعا ، ونرى أنه بمقدار سرعة انتقالنا المستقبلى يكون حظنا من الوجود ، وشعورنا به ، وليست العبرة عندنا بطول الوقت الذى يعمره الإنسان ؛ بل بمقدار انتقاله المستقبلى ، وتحقيقه لإمكانياته ، أى بمقدار ما بذل من مجهود ، واستنفد من قوة ، وما استطاع أن يحصل عليه من جراب المستقبل

وإن الشعور بالوجود ، والإحساس بالحياة ، ليتفاوت لدى الإنسان بالنسبة إلى الفعل والعمل الذى يؤديه ، والقوة التى يبذلها ؛ أو يتفاوت بالنسبة إلى ما يناله من الانتقال المستقبلى ، والتغير الذى يعانيه ، فألف سنة مثلا قد لا تساوى لحظة أو ساعة ، ألف سنة خاملة ساكنة ميتة نائمة ، لا تساوى ساعة حية نشيطة فعالة ، يبذلها الكائن فى استنفاد إمكانيات وجوده

وأرجو أن تطيل التأمل وتنعم النظر ، وتقف طويلا معى عند أهل الكهف الذين أمضوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، كانت عندهم بمثابة يوم أو بعض يوم ! ولتنعم النظر أيضا وتطل التأمل فى هذه الثلاثمائة عام نفسها التى عاشتها الأجيال المتتالية من الأحياء ، ولننظر كيف تغير الوجود ، وتبدلت الأشياء بالنسبة إليها ؟ وكيف عاش هؤلاء الناس واستنفدوا بما أتوا من عمل وبذلوا من قوة إمكانيات وجودهم

فوجودنا لا يتوقف خصبه وغناه على طول مدته ، كما لا يتوقف فقره وإعماله على قصره وسرعته ؛ بل على قدر حظنا من الانتقال المستقبلى وشعورنا بالوجود

° ° °

السببية وغريزة الحياة :

لو فرض أننا عرفنا الأسباب كلها بكل دقة وكل تحديد ، وكنا على دراية تامة بها ، على رغم تشابكها وتعقدها وعظم مقدارها ، واستطاعة عقل واحد أن يستوعبها ، نقول لو أننا كنا على علم تام بهذه الأسباب على النحو الذى أسلفنا ، تلك الأسباب التى يحدث نتيجة لها كل ما فى هذا الكون . . فماذا يكون حالنا ؟ وماذا يكون موقفنا من هذا الوجود ؟

نريد أن نرى أولا نتيجة علمنا الكامل الدقيق الثابت بالأسباب ومسبباتها ، وبالقوانين والسنن التى يسير عليها هذا الكون .. حينئذ سنرى المستقبل والحاضر والماضى أمامنا ، ونعلم ما حدث وما يحدث فى كل من هذه الأجزاء ، لأن إحاطتنا الكاملة بقوانين الوجود ستريتنا : كيف يسير الوجود فنرى كيف سار . وكيف يسير ، وكيف سيسير وستريتنا الوجود واحدا ، فنعلم الغيب ونعرف الماضى السحيق ، ويتحقق ما عناه « لابلاس » الفلكى الفرنسى المشهور من معرفة قوانين الطبيعة ، حتى يستطيع العقل الإنسانى أن يرى الماضى والحاضر والمستقبل . ولنستطيع أن نشبه الأمر بمرآة ، إذا نظرنا فيها لإنسان رأى ما مضى وما هو آت ، أو نشبهه بشريط سينمائى يديره

الإنسان فيمر عليه ما نسج من الوجود (الماضى) وما ينسج منه (الحاضر) وما ينتظر النسج (المستقبل)

ونريد أن نرى ثانيا : حالنا وموقفنا من هذا الوجود ، بعد أن يكون الوجود مجرد مرآة أو شريط

سيكون نتيجة ذلك أمرا واحدا، هو انعدام الحياة والوجود!

فإن الإنسان إذا تيقن مما سيحدث وراءه ، أو إذا عرف ما سينتقل إليه معرفة كالرؤية — مع ملاحظة أن انتقاله المفروض حينئذ لا يشبه على أى نحو من الأنحاء الانتقال المستقبلى الذى هو علة الحياة — فلماذا سيعمل إذن ؟ ولماذا يجتهد لتحقيق شئ قد رآه ؟ إن الوجود سيفقد لذته لديه ، وسيفقد بالتالى ذلك السر سر الحياة ، وسر الوجود ، وهو الانتقال المستقبلى الذى يشعر الانسان بالحياة وبالوجود ، والذى يشمل الأمل والعزاء والرغبة والرجاء ، والذى يدفعه إلى أن يعمل ليحقق إمكانياته

ولكن .. قد يعمل الانسان لمجرد لذة تحقيق الفعل .. أفلا يعمل ذلك الانسان الذى يرى الوجود كشريط أو مرآة ، لمجرد لذة التحقيق ؟

يجب أن نقول إن ذلك الانسان إن يعمل لمجرد لذة التحقيق، كالذى يشاهد من إنسان لا يرى الوجود كشريط سينمائى أو مرآة ، حين يعمل عملا وجد فيه لذة ما ، فهو يعود ليحقق نفس العمل الذى يعرف نتيجته مقدما ، ثم يعود ليحققه .. ومع ذلك لا يمله ولا يتركه . إن يكون أمر هذا الانسان الذى يرى الوجود ، كأمر ذلك الآخر الذى لم يعرف من الوجود إلا جزئيه ، لأن ذلك الأخير يتمتع بغريزة الحياة ؛ أما الأول فبرؤيته الوجود فى مرآة أو شريط ، بناء على معرفته بالأسباب والمسببات سيفقد « غريزة الحياة » وإن لم يفقد الطاقة على العمل . فوجودنا يشمل أمرين : الأول « غريزة الحياة » — وهى هذا الدافع الذى يدفعنا إلى الحياة الناتج من الانتقال المستقبلى ، لأن الانتقال المستقبلى يولد فى الإنسان أشياء منها التوتر والقلق ، والرغبة فى تحقيق الفعل ، والغموض ، وعدم التعين الذى يدفع بالإنسان إلى الانتقال المستقبلى ليرى سره ، والتعزى عما مضى بما هو آت، والتطلع الدائم إلى ما يضمه المستقبل بين جنبيه ، وحالة عدم السكون الناشئة من الرغبة فى تحقيق الفعل ؛ وكل هذه الأمور تكون ما نسميه « غريزة الحياة » أو الدفعة التى تدفع الناس إلى الحياة . وأما الأمر الثانى : فهو « الطاقة » التى يعمل بها الإنسان ليحقق الفعل ؛ ولا يكون ثمة طاقة ، إذا لم يكن هناك « غريزة الحياة » ، ولكن قد توجد غريزة الحياة دون طاقة ، ولكنها تكون حياة ساكنة لا تحقق إمكانيات ، حياة عدمها خير من وجودها . وقد رأينا أن معرفتنا التامة للأسباب ستفقدنا « غريزة الحياة » الناشئة عن هذا اللاتحدد فى الانتقال المستقبلى ، ففناء وجودنا ، وانعدام حياتنا .. سيكون حين يكون وجودنا مجرد مرآة أو شريط

للكلام بقية

عبد الجليل السيد حسن

يصدر

عدد الرسالة

السنوى الممتاز

فى يوم ٧ يناير

سنة ١٩٥٢